الفصل الرابع
الحضارة الغربية المعاصرة
من التكوين إلى فكرة الاضمحلال

تقديم :

يعتقد بعض المفكرين أن الناس ينجزون الحضارة عندما يحولون الطبيعة بجهدهم الشاق، ومن ثم وخلال هذه العملية يحسنون من أنفسهم، ومن ظروف معيشتهم، ويرى آخرون أنها موروثة، أعني جزءاً من تراث تاريخي تناقلته أجيال النخبة جيلاً بعد جيل، ويذهب فريق ثالث إلى أن الحضارة مغروسة متأصلة في العلاقات الاجتماعية، ويرى غير هؤلاء أن الحضارة تعبير عن حالة تفوق بيولوجي .

وربما يكون الرأي الأول هو أقربها للصواب، فكم من دول تأخرت كثيراً في ركب الحضارة على الرغم من ميراثها الحضاري التاريخي، وكم من دول تحظى بترتيبات راقية في إدارة علاقاتها وسلوكها الاجتماعيين، ومع هذا ليس لها هذا النصيب في السلم الحضاري، والقول بأن الحضارة تعبير عن حالة تفوق بيولوجي، بعيد كل البعد عن الحقيقة، ذلك أن كثيراً من الدول التي تراجعت حضارياً في الوقت الراهن، كان لها تاريخ حضاري متميز، بل وقدمت إسهامات يذكرها تاريخ الحضارة حتى يومنا هذا (مثل المصريين واليونانيين) .

ومن ثم يأتي التفسير الأول، ليقترب نسبياً من عتبة الصواب شريطة أن يتفاعل هذا الأداء البشري مع منظومة من القيم والأخلاق. ويذهب بعض المفكرين الغربيين إلى القول بأن بعض أجناس البشر مهيأة للتقدم الحضاري، على حين لا تتمتع أجناس أخرى بخصائص كافية لإحداث هذا التقدم، ومما يؤسف له أن ابن خلدون ينحو نفس المنحى. ونود أن نناقش هذه القضية لما لها من أثر على فلسفة الاستعمار الحديث .

فالقول بامتياز الأجناس بعضها على بعض شائع عند معظم الأمم في العصور القديمة والوسطى، ولا يزال قائماً عند الغرب، وخاصة غرب أوروبا والولايات المتحدة. فاليونان كانوا يرون أنفسهم أفضل الأمم وأذكاها وأشرفها،

والـــرومان جعلـــوا الروماني فوق غيره بحكم القانون . أما أهل الصين فكانوا يؤمنون بأنهم أفضل الخلق، وأنه لا وجود لأي حضارة أو فضيلة خارج جنسهم. وأمـــا الهـــنود فشأنهم في تفضيل طبقة البراهمة على غيرها معروف ، ولازال لـــديهم التمايز الطبقي . وكذلك الغرب ، فلهم في التمايز الجنسي آراء كثيرة . ويكاد لا يخل من عقدة الجنس هذه غير العرب بعد الإسلام .

وترتكـــز نظـــرية تفاضل الأجناس عند الغرب على أن التفوق الخلقي والمعـــنوي مرتبط بلون البشرة ، أي بنسبة خلو الجلد من المادة الملونة ، وإن كـــان ذلك غير محتمل من الناحية البيولوجية . وعلى نحو آخر اكتشف علماء اللغـــات أن اللغـــات اللاتينية واليونانية والفارسية وأهل شمال الهند تتشابه فيما بينها في التركيب والنحو والصرف ، وأنها كلها ترجع إلى أصل آري أو هندي أوروبي . ومادام هذا كذلك فلابد أنه كان هناك جنس أصيل آري يسكن المناطق الممـــتدة من شمال الهند إلى شمال أوروبا ، ثم تفرع وامتد غرباً وشرقاً وشمالاً فـــي الأراضـــي التـــي سادها الأتراك فيما بعد . وهذا الجنس الآري أو الهندي الأوروبي هو الجنس الموهوب الذي ساد أهل المعمورة بامتيازه البدني والذهني، وأخـــرج آخر الأمر أهل الغرب الأوروبي . وهذا الجنس الشريف النبيل – في رأيهم – هو الذي صنع كل ما هو عظيم في حضارة البشر .[1]

وعلـــى نحـــو من هذا التفسير ظهرت فلسفات استعمارية تحمل أسماء مخـــتلفة ، وإن كانـــت تتـــشابه في جوهرها مثل أمانة الرجل الأبيض أو ذلك الترتيب الجنسي (أو العرقي) الذي وضعه الألمان إبان الحرب العالمية الثانية . وكـــان الألمان فيما قبل قد استخدموا مصطلح الهندي الجرماني بدلاً من الجنس الهـــندي الأوروبـــي ، وقد حاول بعض المفكرين الغربيين تقديم تأصيل علمي وتاريخي لهذه الفكرة ومنهم الإنجليزي هيوستون ستيوارت Stewart الذي افتتن بمـــواهب الجـــنس الألماني ، وراح يستعرض مناقب الجنس الآري أو الهندي الجرماني في كتابة " أسس القرن التاسع عشر " The Foundations of the Nineteenth Century وبلـــغ بـــه أن ضـــم دانتي وعيسى عليه السلام إلى الآريين أي الهنود الجرمانيين . ولقد سيطرت هذه الفكرة على الأمريكيين حتى

أن بعض كتابهم أمثال ماديسون جرانت ولوثروب ستودارد نصحوا بقصر الهجرة إلى الولايات المتحدة على الأنجلوسكسون والجرمان وأهل شمال أوروبا.

وقد حاول أرنولد توينبي Tonbee تفنيد هذه المزاعم في كتابه " دراسة التاريخ " A Study of History بقوله إن علماء الأجناس يقسمون الجنس الأبيض إلى أقسام على أساس نماذجهم الخلقية ، ففيهم ذوو الرؤوس الطويلة وذوو الرؤوس المستديرة والبيض والسمر .. إلخ . وينتهي بهم الأمر إلى تقسيم الجنس الأبيض إلى ثلاث فصائل هي : النوردية Nordic والألبية Alpine والبحرمتوسطية ، ويحاول توينبي تتبع مساهمات هذه الفصائل في الحضارة الإنسانية ، فيرى أن النورديون (أي الشماليون) قد أسهموا في خمس حضارات هي : الهندية والإغريقية والغربية والروسية الأرثوذكسية والحيثية . وساهم الألبيون في سبع حضارات – وربما تسع – هي السومرية والحيثية والإغريقية والغربية والروسية ، وأصلها الذي انطلقت منه وهي الحضارة المسيحية الأرثوذكسية (البيزنطية) ، والحضارة الإيرانية وربما المصرية والميناوية Minoan . وساهم الجنس البحر متوسطي في عشر هي : المصرية والسومرية والميناوية والسريانية والإغريقية والغربية والمسيحية الأرثوذكسية والإيرانية والعربية والبابلية . وساهمت بقية أجناس البشر فيما يلي : فأما الجنس الأسمر ويشمل الدراويدي Dravidians الهندي وأهل الملايو Malayans (ومنهم الإندونيسيون) فقد ساهم في حضارتين : الهندية والهندوكية . وساهم الجنس الأصفر في ثلاث : الصينية وحضارتي الشرق الأقصى وهما الصينية ووليدتها اليابانية . أما الجنس الأسود فلم يساهم إلى اليوم في حضارة ما . ويخرج توينبي من هذا التحليل بأن نصف حضاراتنا قامت بمشاركات من أكثر من جنس واحد ، وأننا لا نجد جنساً مفرداً قام وحده ببناء حضارة كاملة .[٢]

لذلك فإن القول بأن الجنس الأبيض ينفرد وحده بصنع الحضارات أو معظمها إنما هو وهم وإدعاء لا يقوم على أساس . وأن نظرية تميز جنس على جنس إنما هي تشويه وتزييف لحقيقة بناء التاريخ . فالجنس الأبيض لم يسهم بأكثر مما أسهم به غيره .[٣]

وقــد أرهق الباحثون الغربيون أنفسهم للخروج بهذه النتيجة ، على حين أن القرآن الكريم أجملها في آية واحدة (الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات): ﴿ يَاأَيُّهَــا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقــد نشأت عن القول بتفاضل الأجناس واختصاص بعضها دون بعض بالــذكاء والكفاءة والقدرة على بناء الحضارات مشكلات ومآسٍ طويلة أغرقت البشرية في تصرفات حمقاء وحروب طويلة .[٤]

وأغلــب الظــن أن الحضارة الإنسانية انطلقت من جهات كثيرة في آن واحد ، فهناك أكثر من مهد لحضارة البشر بعكس ما كان يظن في الماضي من أن مــسيرة الحضارة بدأت في وادي النيل وحده . وقد توصل إلى هذا فريمان Freeman فــي نهاية القرن التاسع عشر حينما قال : ومجال الشك قليل في أن الكثيــر من أهم المخترعات الأساسية للحياة المتحضرة قد تم اختراعها مرة بعد أخرى في أزمان وبلاد متباعدة ، لأن شعوباً كثيرة وصلت إلى تلك المراحل من الــتقدم الاجتماعــي احتاجت فيها إلى هذه المخترعات أول مرة ، ومن هنا فقد اخترعت الطباعة في الصين وأوروبا في العصور الوسطى وكل منهما مستقلة عــن الأخــرى . ومــن المعروف أن عملية مشابهة للطباعة في أساسها كانت مستخدمة لأغراض شتى في روما القديمة ، ولو أن أحداً لم يخط الخطوة الكبيرة نحــو اســتعمال هذا الاختراع في طباعة الكتب . كذلك إذا نظرنا إلى المباني الأولى في مصر واليونان وإيطاليا والجزر البريطانية وخرائب المدن القديمة في أمريكا الوسطى ، تبينا أن اختراع المباني والقباب قد تم أكثر من مرة في تاريخ البشر .[٥]

وربمــا كان التباعد بين الجماعات البشرية وصعوبة الاتصال بينها هو الــذي حــال بــين انتقال هذه المخترعات أو اقتباسها ، وذهبت كل جماعة إلى الــبحث عــن لــزوميات الحــياة ، ومن ثم توصلت الحضارات المختلفة إلى الاكتشافات الحضارية الأولى في أوقات متقاربة .

ولكـــن الأهـــم مـــن ذلـــك هو ميلاد الضمير أو فجر الضمير Dawn of Conscience ، ذلـــك الذي يعني بزوغ الحضارة الإنسانية الحقيقية التي تميز بني البشر .

وفي ذلك يقول توينبي في كتابه الأخير " البشر وأمهم الأرض " Man and Mother Earth إن وعي الإنسان لنفسه وميلاد ما يسمى بالضمير يعتبر تاريخ بداية حضارة الإنسان ، أو بداية وجوده كمخلوق متميز بنفسه عن سائر الحيوان وقـــادر علـــى صنع الحضارة ومدرك لبعض القيم الإنسانية ، لأن الإنسان في مرحلة كفاحه الطويل لينجو من الفناء كان مثله كمثل غيره من الحيوان ، لم يكن يميـــز بين الخير والشر فهو يقتل ليطعم ويعيش وهو لا يشعر بأنه يعتدي على غيره .[٦]

إن الفـــصل الـــراهن سيناقش الحضارة الغربية من حيث هي فكرة أو مفهوم أو فلسفة أو طريقة لتنظيم الواقع ، وسوف يركز هذا الفصل على تطور فكـــرة الحضارة الغربية التي بدأت صياغتها الافتراضية في أوروبا النهضة ثم أعـــيد بلـــورتها فـــي عصر التنوير خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتخـــتلف الآراء حول بداية هذه الحضارة ما بين منصف موضوعي ، ومتحيز متعصب . فعلى حين يرى المنصفون أن الحضارة الغربية المعاصرة تتقاسم في نشأتها الإرث اليوناني والعطاء الإسلامي المتميز إبان فترة النهضة الإسلامية ، يـــذهب المتحيزون إلى القول بأن الحضارة الغربية بدأت في اليونان القديمة ثم روما من بعدها وانتقلت إلى شمال أوروبا إبان عصر التوسع فيما وراء البحار وعصر التصنيع ، وانتقلت أخيراً إلى الولايات المتحدة حيث ازدهرت الحضارة الغربية ، وحققت أعظم إنجازاتها في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ومع أن هؤلاء المتحيزين ، سلموا بوجود حضارات أخرى مثل الإسلامية والصينية ، إلا أنهم ذهبوا إلى أن أياً من هذه الحضارات لم يبلغ شأن إنجازات حضارة الغرب في اليونان أو روما القديمة والمجتمعات التي هي من سلالة هذا التراث .

كذلك لم يشأ هؤلاء غير المنصفين من المفكرين الغربيين أن يتحدث عن مقـــومات هـــذه الحضارة الغربية ، والتي لا يمكن أن تناقش بموضوعية دون تحلـــيل لدور علماء المسلمين إن إبداعاً أو نقلاً مع التطوير لحضارة اليونان ،

حيث كانت الحضارة الإسلامية الوسيط الفعال بين الحضارتين اليونانية والغربية. وفي القرن الحادي عشر الميلادي (وبالتحديد سنة ١٠٩٥م) انطلقت الشرارة الأولى للحروب الصليبية ، التي مهدت – بلا شك – لنهوض الغرب وانهيار الشرق ، ثم ذلك المقوم الثالث للحضارة الغربية – الذي لازال قريباً من الذاكرة – والمتمثل في المغامرات الاستعمارية التي بدأت في القرن السادس عشر .

الحضارة الغربية : .. التكوين

لم يتشكل الغرب الحديث إلا في سنة ١٦٠٩ ، وهي السنة التي مثلت الخروج النهائي للمسلمين من أسبانيا ، ذلك التكوين الذي ظهر عند مستهل القرن السابع عشر ، معتمداً على الاستيلاء والطرد .

ولا يعني ذلك أنه لم يكن للغرب وجود قبل العصر الحديث ، فعلى العكس من ذلك حاول العالم الأوروبي البحر متوسطي أن ينظم ذاته عبر العصور القديمة ، ويستعد لإعادة رسم خريطته الجغرافية ولكن مولد آخر الديانات السماوية في القرن السابع ، وذلك الزحف الإسلامي لجزء كبير من حوض البحر المتوسط غير كثيراً من رؤية الغرب للأحداث . وفي كل الأحوال فإن التغيرات العميقة التي تسبب ذلك فيها لم تكن قد أعطت بعد للغرب والشرق ذلك الوجه الذي سيرتسمان به اعتباراً من القرن السادس عشر ، لأن الإمبراطورية البيزنطية ظلت على شرقيتها في إصرار وأقامت مع جيرانها الأمويين ثم العباسيين ، أي الشرق علاقات أكثر وثوقاً ، من علاقاتها مع ممالك المسيحية الغربية .

أما البعد الغربي لإسلام العصور الوسطى ، فلم يفكر أحد في مناقشته – على المستوى التاريخي على الأقل من صقلية – التي ظلت عربية حتى الاستيلاء على بالرمو في عام ١٠٧٢ – إلى أسبانيا التي ظلت مسلمة لمدة طويلة ، أضف إلى ذلك أن الحد الفاصل بين الإسلام والمسيحية لم يشكل الفاصل الديني الوحيد في القرون الوسطى الأوروبية – البحرمتوسطية ، وأن الانفصال الداخلي في المسيحية كان له أهمية تكاد تكون متساوية ، وذلك يساعد

على إدراك أن غرب تلك الأزمنة كانت له حدود متحركة منطقها يبتعد عن ذلك سيسدد فيما بعد داخل الوعي الغربي .[٧]

ويجدر الإشارة – كما سبق أن أوضحنا – إلى أن التكوين الحقيقي للحضارة الغـربية جاء عبر : الحروب الصليبية والحضارة الإسلامية والإرث الإغريقي والاكتشافات الجغرافية وأخيراً المغامرات الاستعمارية .

أ – الحـروب الـصليبية – بدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية في السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م بالخطبة التي ألقاها البابا إربان الثاني Urban II واستمرت حتى سنة ١٢٩١م .

وكانـت دعـوة الـبابا صريحة طالب من خلالها شن حملة تحت راية الـصليب ضـد المسلمين في فلسطين . وقد جسدت الحروب الصليبية مظهراً للـصراع الحـضاري بين الإسلام والغرب اصطبغ بالدم القاني ، تواصل عبر حوالـي قرنين من الزمان ، وامتد على رقعة جغرافية عريضة تمر بالأناضول وتستوعب معظم بلاد الشام وتلتهم كل سواحل البحر المتوسط الشرقية .[٨]

وتعتبـر الحروب الصليبية واحدة من القوى الكبرى التي حركت تاريخ الغرب الأوروبي ، وظلت تحكم أفكارهم ومشاعرهم فيما بين سنة ١٠٩٥م وسنة ١٢٩١م . وظلـت للحـروب الصليبية جاذبيتها في أوروبا الغربية حتى القرن الـثامن عـشر . فبالنـسبة لخمسة عشر جيلاً من أبناء الغرب الأوروبي كانت الحروب الصليبية تشغل جزءاً حياً وحيوياً من عالمهم، إذ أن مئات الألوف منهم قد شاركوا بأنفسهم في حملة أو أكثر من الحملات الصليبية ، كما أن آلافاً عديدة مـن أبـناء الغرب الأوروبي ساهموا بأموالهم في تمويل حملة أو أكثر من هذه الحمـلات – ومـن ناحـية أخـرى كانت أحداث الحروب الصليبية تشغل بال الكثيرين ممن لم يشاركوا بالنفس أو بالمال .[٩]

أمـا العالم العربي فقد كان الطرف الذي وجهت إليه أوروبا الكاثوليكية عـدوانها تحـت راية الصليب . وعلى مدى الفترة ما بين أواخر سنة ١٠٩٦ ، وسـنة ١٢٩١م قامت عدة مستوطنات صليبية على التراب العربي في فلسطين وبـلاد الشام والجزيرة ، وتعين على سكان هذه المنطقة العربية أن يدفعوا ثمناً

فادحاً لكي يقضوا على الكيان الصليبي من جهة ، ويتصدوا للمشروعات والغارات الصليبية المتأخرة من جهة أخرى .

لقد كانت الحروب الصليبية سبباً رئيساً من أسباب تعطل قوى الإبداع والنمو في الحضارة العربية الإسلامية . وبعد نهاية النضال ضد الصليبيين دخلت المنطقة العربية في منحنى التدهور والأفول الذي أدى بدوره إلى سقوط العالم العربي تحت السيادة العثمانية . ولكن أحداً لا يمكن أن يتجاهل علاقة ما جرى منذ عدة قرون بما يحكم اليوم علاقتنا بالغرب الأوروبي والأمريكي ، كما أن أحداً لا يستطيع أن يغض النظر عن حقيقة أن الحملات الصليبية ضد الشرق العربي كانت أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية من ناحية ، وأنها كانت السابقة أو التجربة التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية ، فضلاً عن أنها كانت إلهاماً للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من جهة ثالثة. (١٠)

وقد حاول بعض المؤرخين أن يحيل مقدمات هذه الحروب إلى قرون عديدة قبل تاريخ اندلاعها ، حين اعتبر حروب هرقل إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية (٦١٠-٦٤١م) ضد الفرس ، لاستعادة الصليب المزعوم ، أول حروب صليبية من نوعها ، باعتبار أن الدولة البيزنطية قامت بها بحافز من الحماس الديني . وذهب آخرون إلى اعتبار كل من حروب الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، وخلفه يوحنا تزيمسكس المعروف باسم حنا الشميشق (٩٦٧-٩٦٩م) ضد العرب ، من قبيل الحروب الصليبية ، وعممت فئة أخرى هذه الحروب لتشمل ما قام به النصارى من حروب ضد المسلمين في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا في القرنين العاشر والحادي عشر.(١١)

لقد كانت خطبة البابا إربان الثاني أخطر وثيقة في تاريخ التكوين الغربي المعاصر ، بل وتكشف عن طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام ، وتعكس بشكل واضح صورة الإسلام والمسلمين في الوعي الكنسي الغربي . وربما بنظرة فاحصة لما قاله إربان نستطيع أن نتعرف على الدوافع الحقيقية وراء هذه الهجمة الصليبية الشرسة ، فالمسلمون - من وجهة نظره - جنس لعين وأمم

نجسة ، وجنس خبيث . ولم يشأ هذا الرجل الذي سطر صفحة مظلمة في تاريخ البشرية ، أن يخفي دوافعه الأخرى بقوله : إن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام.. إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها . هكذا يبدو الهدف الثاني من وراء الحروب الصليبية ، الاستحواذ على الثروات الطبيعية خارج أوروبا ، وضرورة استجلابها لتأمين الحاجات الأساسية للإنسان الأوروبي . لقد كان الجوع الذي عض بأنيابه معظم أنحاء الغرب الأوروبي سنة ١٠٩٥م هو السبب وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات التي شكلت ما عرف باسم " الحملة الشعبية " أو " حملة الفلاحين " ، حيث رأى الفقراء في دعوة إربان فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الإقطاعيين.(١٢)

فقد كانت أوروبا – وقتئذ – ساحة للتمايز الطبقي ، وللظروف الاقتصادية المتردية ، حيث شحت المواد الغذائية ، وبلغ الأمر إلى الحد الذي عانت فيه أوروبا من أزمة في الحصول على الخبز ، فقد كانت مهددة بحدوث مجاعة حقيقية ، ومن ثم – وفي سبيل استنفار الجوعى – لم يتردد إربان في الإشارة إلى الأهمية الاقتصادية لهذه الحروب .

وهذا لا ينفي تفاعل بواعث أخرى لهذه الحروب ، تختفي وراء أهدافها المعلنة ، حيث يمكن القول بوجود عوامل أخرى غير العاملين الديني والاقتصادي .

فقد كانت أوروبا تعيش نمطاً تعيساً في حياتها الاجتماعية والسياسية عشية الحروب الصليبية ، فكانت بحاجة إلى تصدير مشكلاتها الداخلية ، وتوجيه جهودها وقدراتها نحو خصومها التاريخيين ، بدلاً من أن يبدد قدراتها الاقتتال المحلي ، وتطحنها الحروب الأهلية . (١٣)

وقد عبر عن ذلك جوستاف لوبون بقوله : كانت أوروبا ، ولاسيما فرنسا ، في القرن الحادي عشر الذي جُردت فيه الحملة الصليبية الأولى ، في أشد أدوار التاريخ ظلاماً ، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسا ، ولم يكن في

ذلك الحين نفوذ شامل لسوى البابا ، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له . (١٤)

ومن الملفت للنظر أن تتوحد أوروبا ، وتوقف جميع الحروب المندلعة بينها وتستعد في حماس غير مسبوق لحرب ظالمة وحشية استخدمت فيها كل أساليب الدمار والتنكيل ، وتوصف بأنها حرب مقدسة !!

وإذا كان لنا أن نجمل بواعث الحروب الصليبية – باستثناء الأوضاع الداخلية لأوروبا – في عاملين أساسيين ؛ الأول : العامل الديني المتمثل في ذلك الصراع بين الإسلام والمسيحية ، والذي لم ينته بعد ، رغم الأصوات المسلمة التي تنادي دوماً "بكلمة سواء " . وأما العامل الثاني فيتعلق بالرغبة في الاستيلاء على موارد المسلمين وثرواتهم . وما أشبه اليوم بالبارحة .

وقد حققت الحروب الصليبية أهدافها في تكوين الغرب الحديث وبعث القومية الأوروبية ، وغنم الغرب كثيراً من الشرق العربي مادياً وعلمياً ، فقد نهبوا الموارد ، ونهلوا المعارف ، وأنكروا كل ذلك من بعد . لقد كا نت أوروبا تعيش – عشية الحروب الصليبية – ظروفاً قاسية تسيطر عليها حالة من الفقر والجهل والمرض . ولم تكن حالة التخلف التي تعاني منها أوروبا وليد الصدفة ، بل كانت نتاجاً حتمياً لمنظومة القيم والتقاليد التي أفرزها الجهل وفرضتها الكنيسة ، ومن الأمثلة على ذلك ، كانت القراءة والكتابة صفة لا تليق بالرجال ، ولذا كان الصليبيون القادمون من شمالي أوروبا لا يقرأون ولا يكتبون .

كذلك حظرت الكنيسة الطب والصناعة لأنها كانت تزعم أن المرض عقاب إلهي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه ، كما حرمت الكنيسة الاستحمام وحظرت فتح الحمامات ، بعد أن كانت شائعة في الدولة الرومانية .

لكن هؤلاء وبعد مدة من مكوثهم في ديار المسلمين وتعرفهم على طبيعة الحياة الإسلامية ، ومظاهرها المدنية ، ونسقها الحضاري المتميز ، أصبحوا أمام منظومة قيم جديدة ، ومعارف متنوعة ، وأنماط مدنية أخرى ، فتفاعلوا مع هذه الحياة وتأثروا بمعطياتها المختلفة ، وحاولوا ترحيل مكتسباتها إلى ديارهم في أوروبا بالتدريج ، في مدة تناهز القرنين ، فبدأت تنهض أوروبا من سباتها ، ودبت الحياة في أوصالها ، حتى استوت على عودها ، وقامت على قدميها

بالاعتماد على ما راكمته من ثراء مادي ، وما استعارته من عناصر تمدن ، ومن معارف متنوعة .[١٥]

إن أي محلل موضوعي ، لا يستطيع أن يشكك في الدور الذي لعبته الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان في تشكيل وتكوين الحضارة الغربية . لقد استطاعت أوروبا خلال هذه الفترة أن تنهب كل شيء أمامها بفلسفة النهب والاستحواذ سواء أكان ذلك مورداً اقتصادياً أو معارف علمية ، ولم يكن ذلك على سبيل التواصل الحضاري ، فهو أمر مقبول ، ولكنه بمنطق المستعمر المستوطن . فقد وقعت أعينهم على أعظم حضارة ظهرت في القرون الوسطى في رقعة جغرافية واسعة ، ولم يقتصر ما أخذوه على الموارد الطبيعية والاقتصادية لهذه المنطقة ، بل امتد ليشمل الترحيل المعرفي والحضاري للفنون والعلوم المتنوعة ، وعمدت إلى سرقة هذا التراث وإعادة تركيبه ودمجه في الحضارة الأوروبية دون الإشارة إلى المصادر الحقيقية لهذا التراث .

فباتت الكثير من المجتمعات ذات الماضي العريق بلا حاضر ولا مستقبل ، بعد احتواء ماضيها وإلحاقه بالغرب ، الذي بنى حاضره على ماضي تلك المجتمعات ، حينما استلب تراثها وأسس عليها تقدمه ، وسعي لإشاعة وعي زائف بالتنقيب عن جذور ومنابع مزعومة أخرى لذلك ، وإن كانت تلك المنابع موغلة في القدم في تاريخه ، كي ينفي أي إسهام لغيره في التاريخ ، وليؤكد شمولية تاريخه وكونيته .[١٦]

وخرج من بينهم بعض المفكرين المنصفين أمثال جوستاف لوبون الذي أطلق عبارته الشهيرة لتستقر في ضمير التاريخ : لقد أضحى تأثير الشرق في تمدين الغرب عظيماً جداً بفعل الحروب الصليبية .[١٧]

لقد أخذت أوروبا مبادئ التنظيم السياسي والاجتماعي من المجتمعات الإسلامية إبان الحروب الصليبية وعاد الصليبيون إلى ديارهم يحملون هذه الأفكار والمبادئ وينشرون الدعوة إلى إعادة تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والإصلاح الشامل للمجتمع الذي يبدأ بتحرير الفكر من القيود الكنيسة العقيمة .

ويمكن ملاحظة بعض صور التمدن التي وفدت إلى أوروبا من الشرق عقب الحروب الصليبية ، في انتقال نباتات وفنون وأزياء وصناعات جديدة ،

فمحاصيل مثل السكر والليمون والبطيخ والقطن والحرير الموصلي والدمقس ، لـم تكـن أوروبا تعرفها قبل الحروب الصليبية . كذلك تأثر الصليبيون بروعة الـزجاج المنقوش المصنوع في بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التي أدت إلى تحسين الزجاج الملون ، ويـبدو أن البوصـلة والبارود ، انتقلت إلى أوروبا من الشرق في أعقاب تلك الحروب . ولما كانت الكنيسة تحرم الطب وصناعته ، أتاحت الحروب الصليبية فرصـة لأن يكتـشف الأوروبـيون علم الطب ، ويتعرفوا على التراث الطبي والخبـرة العلمـية الوفيـرة التـي أنجزها الأطباء المسلمون ، فاشتغل بعض الـصليبيين بنقل بعض الكتب الطبية ربية إلى اللاتينية ، وتقدم علم الجراحة بفـضل الحـروب الصليبية . كذلك أسفرت هذه الحروب عن العودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة في الغرب . (١٨)

ونقـل الصليبيون فنون البناء العربي وطرزه المختلفة ، ووضح تأثرهم بـذلك فـي تشييد القلاع والكنائس ، وحاول الأغنياء في أوروبا محاكاة البيت العربي عند تصميم منازلهم . وأخذ الصليبيون عن المسلمين ، استعمال القوس والقذاف والدروع واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع واستخدام حمام الزاجل لحمـل المعلـومات الحربية ، وانتشار علامات النسب على الأسلحة وشارات الفرسـان ، وتأثـروا بفـن بناء الحصون والقلاع الإسلامية . وأدت الحملات الـصليبية إلـى تهذيب أخلاق الفرسان الصليبيين وتنمية وعيهم وتبديل بعض المفاهـيم المتخلفة لديهم وتعليمهم القراءة والكتابة . وتأثر الصليبيون بالقصص والـشعر العربـي فاستوحاها بعضهم في كتاباته ، واعتمدت كثير من قصصهم على قصص ألف ليلة وليلة .

وقد اعترف كثير من المفكرين الأوروبيين بدور الحروب الصليبية في تكـوين الحـضارة الغربية المعاصرة . فيقول إرنست باركر : إن ما نجم عن الحـروب الـصليبية مـن المعرفة والخبرة الجديدة ، قد هيأ مادة جديدة للتفكير العامي والخيال الشعري في آن واحد . (١٩)

وكتب إدوار بروّي إن الاتصالات بين أوروبا والشرق لعبت دوراً مهماً في تطور الحضارة الأوروبية . (٢٠)

وذهب ستيفنسن إلى أن أعظم أثر للحروب الصليبية قد تجلى في إيطاليا وعن طريق إيطاليا ، حيث يعتقد أن ما أبدعته حركة النهضة الإيطالية من إنتاج رائـــع إنما يظهر مباشرة في أعقاب العصر الصليبي ، وأن هذه النهضة كانت ترتكز على دعائم من الرخاء المادي كانت الحروب الصليبية سبباً في إقامتها.(٢١)

بيـــنما يؤكد جوستاف لوبون على أن اتصال الغرب بالشرق مُدة قرنين من أقوى العوامل التي أدت إلى نمو الحضارة في أوروبا . (٢٢)

وكـــتب إرنـــست باركـــر يقول أنه يصح التسليم بأن الحروب الصليبية أسهمت في تفكك النظام الإقطاعي بجعل الملكية حرة سهلة الانتقال ، وبإضعاف قـــوة الألقـــاب ، وســـاعدت على نمو المدن بما حدث من ازدياد حركة التجارة وضخامتها . (٢٣)

ومن الآثار السياسية للحملة الصليبية ، والتي كان لها دورها في تكوين الحـــضارة الغـــربية ، بعث الحياة في السلطة المركزية للدول بعدما ضعفت في ظل هيمنة وسيطرة الإقطاع .

كـــذلك تـــولدت على إثر هذه الحروب مفاهيم وأفكار سياسية هامة في إطار تجربة الإنسان الأوروبي في هذه الحروب ، كما أنها مهدت لظهور بعض الإصـــلاحات ذات الأثر الحاسم في الحياة السياسية ، وربما كان اشتراك ملوك أوروبا في هذه الحروب ومشاهداتهم في مصر وبلاد الشام ، من أبرز العوامل فـــي حدوث هذه الإصلاحات ، ومن أمثلة ذلك فريدريك الثاني الذي قاد الحملة الـــصليبية الـــسادسة ، وكان من أعظم ملوك أوروبا تشبعاً بالحضارة الإسلامية واحتذاءً لها ، وهو أول من أسس مجلساً نيابياً ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكالـــيف ، وأيـــد ســـيطرة القانون على جميع الطبقات ، وأطلق حرية كافة العقائد. (٢٤)

ويعتقد بعض المفكرين مثل جوستاف لوبون أن دستور إنجلترا السياسي، يعد من النتائج البعيدة للحروب الصليبية .

وانتعـــشت التجارة وتبادل البضائع بين أوروبا والمشرق الإسلامي في سنوات الحروب الصليبية ، ونشطت حركة الأساطيل التجارية البحرية في البحر المتوسط ، وأصبحت موانئ البحر المتوسط تعج بالحركة والنشاط فاغتنى بذلك

أهـل مرسـيليا ، وبيزة ، وجنوة والبندقية على الخصوص ، بل كانت صلات البندقية (إيطاليا) التجارية بالمشرق سبب عظمتها . (٢٥)

وازدهرت حركة استيراد السلع والمحاصيل من المشرق ، فيما لم يسبق له مثيل قبل ذلك ، من قبيل الأقمشة الحريرية ، والسكر ، والتوابل ، والزنجبيل، والقـرنفل ، والقـرفة ، والذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطـيخ ، والخـوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح ، والأقمشة المزركشة ، والأصـباغ والمـساحيق ، والعطـور والجواهر ، وأخذت أوروبا عن الشرق صناعتي تكرير السكر والزجاج . (٢٦)

وسـاهم ازدهـار النـشاط التجاري في تطور النظام المصرفي وتنوع عملـيات التداول والائتمان وظهور سياسات جديدة للضرائب ، كما فعل لويس السابع ملك فرنسا ، الذي فرض ضريبة من أجل الحروب الصليبية سنة ١١٤٧م ، ثم حذا حذوه هنري الثاني ملك إنجلترا سنة ١١٦٦م . وعلى الجانب الآخر ، فـإن حـصاد المواجهة الإسلامية / الصليبية كان سلبياً على الجانب العربي / الإسـلامي ، إذ تعـين على المنطقة أن تحشد كل مواردها وإمكاناتها في خدمة المجهـود الحربـي ، وكـان الإفـراز الـسياسي هو نموذج الدولة العسكرية الإقطاعية، وقد نجحت هذه الدولة – التي تطورت نظمها عبر سنوات طوال من الـتجارب والخبـرات السياسية والعسكرية – في مهمتها التاريخية ، وضرب الوجود الصليبي حقاً ، ولكنها فشلت في إدارة المجتمع على أسس مدنية . وحين تدهـور نظامهـا السياسي بدأت تمارس التسلط على شعوبها ، وهو الأمر الذي أدخـل المـنطقة في منحنى التدهور الحاد منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . (٢٧)

وفـي خـضم هـذه الأحـداث الجسام تعطلت قوى الإبداع والنمو في الحـضارة العربية الإسلامية ، على حين انطلقت أوروبا معتمدة على ما سلبته من المعارف والفنون الإسلامية والموارد الاقتصادية .

ب – الحـضارة الإسلامية – يأتي هذا البند استكمالاً للبند السابق ، فقد أخفقت أوروبا في تأسيس تقاليد فكرية مهمة خارج الكنيسة – ولذا فليس ثمة ما يدعـو للدهـشة في أن ينقلب المترجمون الأوروبيون من أمثال أديلارد

الباثـي Adelard of Bath (١١١٤-١١٨٧م) وجيـرارد الكريموني Gerard of Cremona (١١١٤-١١٨٧م) ، وغيرهما ، عندما صادفوا التـراث الفكري الغني للشرق الأوسط إلى متحمسين ومروجين لحكمة " سادتهم العرب " .

لقـد أدرك المتخصصون في تاريخ العصور الوسطى منذ زمن بعيد ، الـدور المهـم للثقافة العربية الإسلامية في القرن الثاني عشر ، الذي أدى إلى ظهـور عـصر النهضة في أوروبا . ولم يكن هذا الدور منحصراً في إبداعات العلماء المسلمين ، وإنما امتد ليشمل انتقال وتطوير المعارف اليونانية التي ظلت مفقودة لوقت طويل ، ولم ترى النور إلا من خلال الثقافة العربية الإسلامية .

وقـد أثر هذا الانطلاق الجديد للحيوية والإبداع في كل شيء تقريباً في مجال النشاط الفكري . وتبدي هذا الأثر في القانون والفلسفة واللاهوت والبحث العلمي ، وتزامن معه إنشاء الكليات والمدن الجديدة .

وظهـر بالفعل شعور جديد بالرفاه سببه النمو الاقتصادي السريع الذي دعـم هذا الانطلاق الجديد للعقل والخيال . وقد يحق لنا أن نقول إن هذه الروح الجديـدة هـي التي أنتجت أشد مظاهر الاختلاف والتمايز بين مفكري أوروبا ومفكـري العرب المسلمين خلال هذه الفترة ، هي والشعور بالمقدرة الإنسانية وظهـر أيـضاً فـي الروح العقلانية الجديدة التي رأت علائم العقلانية والنظام المخطط له في المجالات كلها . ساد هذا الاتجاه شتى مظاهر الحياة الفكرية في أوروبـا (بعـد أن وقعـت أعينهم على الحضارة العربية الإسلامية) كما لو أن مفكري العصر وضعوا على أعينهم نظارات ملونة بلون العقل . (٢٨)

ودون الرجوع إلى الوراء كثيراً ، فإن الفترة المهمة في تكوين الحضارة الغـربية المعاصرة تنحصر ما بين أول القرن الرابع عشر وأوائل القرن السابع عـشر ، حـيث تمـثل عـصر النهـضة في أوروبا ، وخلال هذه الفترة نهل الأوروبـيون مـن ينابـيع الفكر الإسلامي التي باتت متاحة لهم على نحو غير مـسبوق ، والأهم من ذلك القدوة والأمثولة الحضارية في العالم الإسلامي التي خلقت الحافز الأول عند كل أوروبي لتغيير نمط حياته .

ونقلت أوروبا عن العرب المسلمين ، أحداثاً جساماً في تاريخ الحضارة الغربية ، من بينها ابتكار المطبعة المتحركة بنظام القوالب ، والتي نقلها المسلمون عن الصينيين . وأخذ الغرب عن الشرق صناعة الورق ، ثم صار يصنع ورقاً أرخص ثمناً وأيسر صنعاً من الورق الحريري الذي كان يستعمله العرب .

وأخذ كوبرنيكوس من ابن الشاطئ الدمشقي بعضاً من أفكاره ، فطور نظرية فلكية تتفق مع الأرصاد ، كما يقال أن العرب هم الذين دلوا البحارة الغربيين على البوصلة البحرية التي ظلت سراً مصوناً بيد البحارة العرب مكنهم من الابتعاد عن الشواطئ وركوب أعماق المحيطات من غير أن يفقدوا اتجاههم، وهكذا استكشف الأوربيون العالم الجديد وأضاف بعداً جديداً لحضارتهم ، إن لم يعد هو القائد لهذه الحضارة الآن !!

إن الدور العربي الإسلامي في تكوين الحضارة الغربية واسع المجال يشمل كل شيء ، وسوف نعرض له تفصيلاً في بند لاحق .

ج - الإرث الإغريقي :

إن أسطورة حق الامتياز الوحيد المؤسس لمرجعية المصدر الإغريقي للحضارة الغربية ، بدأت تأثيرها منذ القرن الرابع عشر على صورة آلة طرد لا ترحم للمصادر الإسلامية أو الشرقية (أو غير المسيحية) للحضارة الأوروبية . فمُحيت في هذا الإطار التأثيرات المصرية مثلاً التي ارتوت منها بلاد الإغريق، بداية من الفلاسفة الذين سبقوا سقراط حتى آخر أحفاد الإسكندر ، ثم تجاهل الهيبة والشهرة الهائلة التي كانت دائماً لمصر في العالم الإغريقي الذي اعترف منقفوه عن طيب خاطر بما يدينون به لعلومها وديانتها ، ثم التعتيم على البعد الجوهري للفترة الهيلينستية التي هي تهجين بين الهيلينية (الإغريقية) وبلاد الشرق .[٢٩]

وإن ظلت هذه الثقافة الإغريقية لما يربوا على الألف سنة ، دون أن يقترب منها أو يحاول تفهمها أحداً من الأوروبيين الذين عاشوا في ظلام الجهل طيلة العصور الوسطى .

فقد سمحت الرغبة المتعنتة لمفكري عصر النهضة في أن يخترعوا لأنفسهم انتساباً مباشراً مع أجدادهم اليونانيين ، وأن يتناسوا ذلك الدور العربي الإسلامي الذي مكنهم من إعادة اكتشاف ما خلفه لهم هؤلاء ، فمع الترحيل الكامل للإسلام من الساحة السياسية لأوروبا الغربية، تواكب معه طرد الفكر المسلم من النطاق الفكري الأوروبي .

ومع ذلك فإننا نعرف الدور الذي أدته أسبانيا الإسلامية ليس فقط في نقل الفلسفة الإغريقية ، بل في إعادة تأويلها أيضاً ، كما نعرف كيف اكتشف أوروبا المسيحية ، ابتداء من الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥م ، خلال بضعة عقود جزءاً كبيراً من الثقافة الفلسفية المتراكمة منذ عدة قرون على أرض الإسلام . فإذا كان عصر النهضة قد تمكن بمثل هذه السرعة من إعادة تواصل الخطوط التي تقطعت كثيراً مع النسب الإغريقي الذي تدعيه ، فذلك لأن الإسلام الغربي كان قد مهد لها المجال . (٣٠)

د - الاكتشافات الجغرافية - ومن الأحداث التي جرت في عصر النهضة ، وكان لها تأثير عميق في تكوين الحضارة الغربية"، رحلات الاستكشاف التي بدأها برتلوميو دياز سنة ١٤٨٨م ، وتبعه كريستوفر كولمبس سنة ١٤٩٢/ ، وفاسكو دي جاما سنة ١٤٩٨م ، ثم ماجلان من سنة ١٥١٩ إلى ١٥٢٢م .

ويقوم منطق الاستكشافات الجغرافية الأوروبية على أن البلاد التي لم تكن حاضرة في الوعي الأوروبي غير موجودة ، وأن لحظة وجودها تتزامن مع اليوم الذي حضرت فيه لدى هذا الوعي ، وكأن حدود العالم هي حدود المعرفة الأوروبية به ، فما لم يكن معروفاً لها لم يكن موجوداً ، ولذا فإن تاريخ أمريكا وسكانها الأصليين ، بل تاريخ كل الشعوب الأخرى ، التي لم تعرفها أوروبا قبل الاستكشافات الجغرافية ، يبدأ ساعة التعرف عليها ، أما كل ذلك التاريخ الذي طوته هذه الشعوب خلال عشرات القرون ، وما أنجزته فيه من معطيات حضارية ، فليس بتاريخ وإنما هو طور من أطوار البربرية والوحشية .

ولتكن هذه الفلسفة مبرراً للسطو على حضارة الغير من جانب ، والاستيلاء على موارد هذه البلاد وإخضاع أهلها من جانب آخر . وبذلك مثلت

الدنيا الجديدة (أو العالم الجديد) مكوناً مهماً في الحضارة الغربية المعاصرة التي قامت على مبدأي الاستيلاء والطرد .

من هنا جرى طمس ثقافاتها المحلية ، واستبدال لغاتها بلغات المستعمر، وإزاحة تراثها بمختلف تجلياته وألوانه ، واستبدال بتمامه بالثقافة الأوروبية ، كثقافة بديلة ووحيدة .

وسوغ هذا الفهم لأوروبا استلاب كافة ثروات بلدان العالم الجديد وترحيلها إلى البلدان الأوروبية ، والتعامل مع مواطنيها الأصليين كسلع تجارية يجري استغلالها واستخدامها إلى أقصى حد ، حتى إذا تم استنفاذها يمكن التخلص منها بأبشع وسائل التصفية الجسدية . (٣١)

ومن أوضح الأمثلة ، ما جرى في الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما لجأ النازحون الجدد إلى إبادة الأقوام الأصليين ، وطويت صفحات تاريخ أقوام تغور في الزمن إلى حوالي أربعين ألف سنة . فاستبدلت أسماء البلاد ، واستخدمت لغات المستعمر بعدما محيت اللغات الأصلية للبلاد ، وفتت مقومات البنية التقليدية للأقوام الأصليين . ولما أدت أساليب التصفية الجسدية إلى إزهاق أرواح السكان الأصليين في أمريكا وتفريغ البلاد من الأيدي العاملة ، لجأوا إلى استقدام عدد كبير من العمالة القادرة على الإنتاج في الحقول والغابات والمناجم من خلال تجارة آثمة ستظل نقطة سوداء في جبين البشرية ، ألا وهي تجارة الرقيق .

هـ - المغامرات الاستعمارية - صيغت فكرة الحضارة في سياق التوسع الاستعماري الأوروبي في أفريقيا وآسيا والأمريكتين ، وكان التركيز واضحاً على الدول الإسلامية ، خاصة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية كآخر المعاقل الكبرى للسلطة الإسلامية وقتئذ ، ومن ثم بدأ العالم الإسلامي في مجموعه يقع تدريجياً تحت الهيمنة الإمبريالية لأوروبا . لقد جاء حين من الوقت تحول فيه كل بلدان العالم الإسلامي ، من إندونيسيا إلى جبل طارق ، وشمالاً حتى آسيا الوسطى ، وجنوباً حتى أفريقيا شبه الصحراوية ، تحول كل هذا إلى ملكية استعمارية لمجموعة من القوى الأوروبية : إنجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا

والبـــرتغال وإيطالـــيا وروســـيا . وكانـــت المملكـــة العربية السعودية وأفغانـــستان هما وحدهما اللتين بقيتا مستقلتين . ولهذا ينظر المسلمون إلـــى قضايا الاستعمار بحساسية شديدة ، خاصة أن الاستعمار انبثق من الجيـــران الأوربيين القريبين منهم والمألوفين لديهم . ولقد كان للهيمنة المسيحية آثارها على كثير من جوانب الحياة ، مما جعل الاحتلال أمراً مرهقاً نفسياً .(٣٢)

وكـــان الهدف الاقتصادي واضحاً لهذه المغامرات الاستعمارية ، حيث اســـتنزفت موارد الدول المستعمرة من المواد الخام الأساسية وتحولت مزارعها لمحاصيل التصدير التي تحتاجها الدول الاستعمارية ، ففي الوقت الذي عانت فيه هـــذه البلدان من الفقر والجوع ، ساهمت هذه الموارد في نهضة أوروبا ونشوء حـــضارتها المعاصرة . وبعد أن دمرت الهياكل الاقتصادية والاجتماعية تدميراً كـــاملاً ، ووهـــنت تمامـــاً طاقـــات هذه المجتمعات على المقاومة ، بدأ التغلغل الأجنبـــي يغـــزو المجـــال الثقافي في محاولة للهيمنة الثقافية وطمس هوية هذه المجتمعات .

لـــذلك كان التصور أن المرحلة الاستعمارية ليست مرحلة هيمنة أجنبية فحـــسب ، بـــل مرحلة إذلال وإفساد ثقافي أيضاً . ولا تزال نتائجها ماثلة حتى الـــيوم في جميع أنحاء البلدان المستعمرة سابقاً ، ولكنها أشد وضوحاً في البلدان الإسلامية حيث عانت المجتمعات الإسلامية التقليدية من عزلة حادة . وظهرت نخـــبة جديـــدة مـــتأوربة فرضت نفسها وثقافتها ، والنتيجة أن هذه المجتمعات حُـــرمت مـــن فرصة التطور تطوراً طبيعياً وعضوياً ، ووضعت بدلاً من ذلك قـــسراً فـــي نموذج جديد بأساليب تتسم بالعنف الفوري إزاء النظم القديمة ، ولم تجـــد الفرصة للتكيف التدريجي . والمسلمون اليوم مواجهون مرة أخرى بحملة غـــربية جديـــدة ، هـــي هـــذه المرة عن القيم العالمية وحقوق الإنسان وتطبيق الليبـــرالية السياسية وبناء مجتمعات مدنية . وإن كثيرين من المسلمين ينظرون لأسباب مفهومة بعين الشك إلى هذه العملية التي تعيد إليهم ذكريات خاصة عن شـــيء ســـبق أن ألفوه . فالغرب في نظرهم سعى لكي يفرض قيمه في القرن الـــثامن عشر بالحديث عن انتشار المسيحية ، وفي القرن التاسع عشر بالحديث

عــن الرسالة التحضيرية وأمانة الرجل الأبيض . واليوم يرى مسلمون كثيرون مــسألة حقوق الإنسان والتطبيق الديمقراطي وصندوق النقد الدولي بمثابة أحدث المخططات التي يلتمس بها الغرب فرض نظامه على العالمين الإسلامي والثالث ومرة أخرى باسم القيم العالمية ، والأحق أن نقرأها باسم المصالح الغربية . (٣٣)

وهكــذا تــبدو صــيغاً اســتعمارية متكررة تهدف في النهاية إلى نفس الأهــداف التــي سعت إليها الحروب الصليبية : نهب الموارد الاقتصادية للبلاد الإسلامية وطمس الهوية الدينية والثقافية وفرض النظام الغربي على العالم . ما أشــبه الــيوم بالبارحة ، فلازالت كلمات البابا إربان الثاني سنة ١٠٩٥م ماثلة أمامنا .

لقــد جــرى تحقيب التاريخ الإسلامي وتاريخ الأمم الأخرى إلى ثلاثة عــصور ، طبقاً لعصور أوروبا المعروفة : القديمة والوسطى والحديثة ، فكأنما مــسار التجــربة الغربية هو مسار التجربة البشرية بتمامها ، وبذلك يحذف أو يُسلب كل إبداع وعطاء بشري خارج التجربة الغربية .

الحضارة الغربية المعاصرة : الإرث الإغريقي والنهضة الإسلامية

يعترف كثير من المفكرين الغربيين ، ومن بينهم توبي هف Huff بأن العلم العربي الإسلامي من القرن الثامن حتى آخر القرن الرابع عشر ربما كان أرقى علم في العالم ، متفوقاً بذلك على العلم في الغرب والصين . وكان علماء الإسلام في كل حقل تقريباً ، في الفلك والسيمياء (كان المشتغلون فيه يسعون إلى تحــويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة) ، والرياضيات والطب والبصريات وما إليها . وكانت الحقائق والنظريات والتصورات العلمية التي تضمها رسائلهم العلمــية أرقــى مــا يمكن الحصول عليه في أي مكان في العالم ، بما في ذلك الصين . ويذهب هف بأن لذلك سببين :

الأول : أن العلمــاء المسلمين أتيح لهم الاطلاع التام تقريباً على التراث العلمــي اليوناني منذ القرن الثامن فصاعداً ، بينما كان هذا التراث مجهولاً لدى الغــرب طــيلة القــرون الفاصلة بين انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخــامس وحركة الترجمة الكبرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وقد حــدث ذلك نتيجة لجهود هائلة في الترجمة ترجمت فيها الأعمال العظيمة التي

أنتجتها الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات إلى اللغة العربية . ومع أن نقل هذه العلـــوم القديمة إلى الحضارة العربية الإسلامية كان انتقائياً ، فإن هذا النقل مثل الفكـــر اليوناني العلمي والفلسفي برمته تمثيلاً كاملاً . أما السبب الثاني : هو أن البحث الذي جرى حتى الآن عن العلم الصيني ما يزال يرى أن الصين تطورت بـــشكل مستقل على مسارات من صنعها هي في معظم حقول العلم . وقد حدثت تـــبادلات بين الصينيين والهنود وبين الصينيين وعرب الشرق الأوسط ، ولكن هذه التبادلات لم تؤد إلى تغيرات صينية كبيرة . والحقيقة المهمة أن الصينيين لم يعـــرفوا شـــيئاً تقريباً عن أرسطو أو إقليدس أو بطليموس أو جالينوس ، بينما أصبحت أعمال هؤلاء خاصة بأشكالها العربية المعدلة والموسعة منطلقات رئيسة في تطور العلم الغربي الحديث . (٣٤)

ولكـــن السبب الثالث – الذي لم يذكره هف – هو أن العلماء المسلمين كانـــوا يمتلكون آلية غير مسبوقة في التطوير والإبداع ، أعادت صياغة التراث الإغريقـــي وأضافت إليه مكتشفات جديدة لم يكن الإغريق قد عرفوها من قبل ، وثمـــة احـــتمالات تُرجع هذه المنهجية العلمية إلى أن هؤلاء العلماء ينتمون إلى حـــضارات أقدم نسبياً من حضارة الإغريق ، والتي تأثرت فيما قبل بحضارات مثل الحضارة المصرية القديمة أو البابلية أو غيرهما .

وأدرك العلمـــاء والعرب حقيقة منهجية لازالت باقية إلى يومنا هذا ، ألا وهي تراكمية العلم ، فلم تقتصر معرفتهم على علوم البلاد المجاورة أو الأفكار المفتوحة ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ، فاهتموا بالاكتشافات التي قامت بهـــا شعوب الشرق الأدنى ، وذلك عن طريق الاطلاع المباشر على النصوص المكتوبة أو بالرواية الشفوية ، وهذه ظاهرة عامة ظلت سائدة بين العرب طوال العـــصور الوسطى ، فإلى جانب النظريات العلمية التي توصل إليها العرب في عصور متأخرة ، نجد أفكاراً ونظريات تعود إلى عصور أقدم .

أ – في مجال الرياضيات والفلك والبصريات

هـــناك رأي يذهب إلى وجود تأثيرات هندية في نشأة علم الفلك وحساب المثلثات عند العرب ، حيث تذكر بعض النصوص عن وفادة رجل يدعي كنكة الهـــندي إلـــى بغداد زمن الخليفة المنصور سنة ٧٧٠م ، وتشير إلى اتصالاته

العلمية بالفلكيين الذين كانوا يعملون لدى الخليفة ، وعلى الرغم من قلة الوثائق المؤيدة لذلك ، فإننا نقبل هذا الافتراض مادمنا نعترف بأن العلماء العرب أدركوا مبكراً الطبيعة التراكمية للعلم . لكن اعتمادهم الأكبر في مجال الرياضيات والفلك والبصريات كان على اليونانيين ، إذ أن معظم الكتب التي ألفها علماء إغريق – أو كلها تقريباً – ترجمت إلى العربية ، ونقحت فيما بعد ، بل وفُسرت وكتب لها هوامش مهمة .

ويمكن أن نطرح عينة من الكتب اليونانية المهمة التي تُرجمت إلى العربية إبان العصور الوسطى فمن مؤلفات إقليدس تُرجم إلى العربية : (١) كتاب الأصول أو الأركان (Elements) الذي ترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعبرية ، (٢) كتاب المعطيات أو المفروضات (Data) ، (٣) كتاب اختلاف المناظر – البصريات (Optics) ، (٤) كتاب الظاهرات في قبة الفلك (Appearance of Celestia Sphere). ومن بين مؤلفات أبولونيوس البرغامي Apollonius Pergaeus التي ترجمت إلى العربية : (١) كتاب المخروطات (Conics)،(٢) كتاب النسبة المحدودة (The Sector of a Ratio) (٣) وكتاب القطع المحدد (The Determinate Section) ، (٤) إنشاء الآلات التي تعمل على الماء (Construction of Hydraulic Machines) أما مؤلفات ثيودوسوس الطرابلسي (Theodosius of Tripoli) المعربة فمنها : (١) كتاب الأكر (Spherics) وترجم فيما بعد إلى اللاتينية ، (٢) كتاب الأماكن (The Book of Places) ، (٣) كتاب الليل والنهار (The Book of Days and Nights) . ومن بين مؤلفات نيقوماخوش الجرشي (Nichomachus of Gerasa) كتاب المدخل إلى علم العدد (Introduction to Arithmatic) . ومن مؤلفات مينيلاوس (Menelaus) : (١) كتاب الأشكال الكرية (الكريات) (Spherics) ، (٢) كتاب في معرفة كيفية تمييز الأجرام المختلطة (The Determination of Adulterated Bodies) ، (٣) كتاب في أصول الهندسة (Elements of Geometry) ، (٤) كتاب المثلثات (The Book of Triangles) ، .. إلخ . ولكن أرشميدس (Archimedes) يعتبر مميزاً بين جميع الرياضيين اليونان ، إذ أن مؤلفاته العلمية الباقية حتى الآن كانت جميعها

معروفة لدى العرب ومنها : (١) كتاب الكرة والأسطوانة (The Sphere and the Circle) ، (٢) توازن السطوح (The Equilibrium of Planes) ، (٣) كتاب مساحة الدائرة (The Measurement of the Circle) ، (٤) الأجسام الطافية (Foating Bodies) ، (٥) كتاب المأخوذات في أصول الهندسة (Stomachion) ، (٦) كتاب المفروضات (Lemmata) . وبالمثل نجد عدداً كبيراً من المترجمات في ميدان الفلك ، حيث عرف عدة مؤلفين قدماء من خلال مقتبسات من مؤلفاتهم وردت في كتاب المجسطي (Almagest) كما عرف العرب ميطن (Meton) وأقطيمن (Eucteman) وغيرهما ، وتوصلوا إلى الأعمال الكاملة لأطولوقس (Autolycus) ، ومنها كتاب الكرة المتحركة الذي ترجم إلى اللاتينية فيما بعد وكتاب الطلوع والغروب (The Rising and Setting of the Stars) . ومن مؤلفات أرسطرخس (Aristarchus) كتاب جرم الشمس والقمر أو حد الشمس والقمر (The Size and Distance from the Earth of the Sun and the Moon) . ومن مؤلفات أراطوس (Aratus) وأبسقلاوس هيبسكليس (Hypsicles) كتاب المطالع (Ascentions of the Signs) . ومن مؤلفات هيبار خوس (Hipparchus) وجيمينوس الروديسي (Geminus of Rhodes) كتاب المدخل إلى علم الفلك (Introduction to Astronomy) وقد ترجم هذا الكتاب فيما بعد إلى اللاتينية والعربية . وعرف العرب أيضاً الكثير من مؤلفات ثاون الإسكندراني (Theon) وغيره . ولكن أهم فلكي درسه العرب كان بطليموس (Ptolemy) الذي عرف كتابه الأصلي (التصنيف العظيم في الحساب Mathematical Syntax عند العرب باسم المجسطي (Almagest) الذي عملت له ثلاث ترجمات مختلفة ، عمل إحداها إسحاق بن حنين ، ونقل هذه الترجمة إلى اللاتينية جيراد الكريموني (Gerad of Cremona) . وانبرى فلكيون عرب آخرون لتلخيصه وتبسيطه والتعليق عليه ، وفي بعض الحالات نقدوا آراؤه نقداً صريحاً . وإلى جانب هذا الكتاب الأساسي عرف العرب كتباً أخرى منسوبة إلى بطليموس مثل : الجداول العملية Manual Tables وكتاب الفروض (Hypotheses) ورسالة في صناعة أحكام النجوم تعرف باسم كتاب الأربع مقالات (Tetrabiblos) وكتاب

جغـرافية فـي المعمـور وصفة الأرض (Geography) ، وكتاب المناظر – البـصريات (Optics) . وهـذا الأخيـر كـان ، مع كتاب أقليدس حول نفس الموضوع ، الأساس الذي بنى العرب عليه قواعد علم البصريات وطوروه .[٣٥]

والـوقاع أن الإرث الإغريقـي لم ينتقل إلى الغرب إلا بفضل ترجمات العرب وشروحاتهم الفنية المبدعة . وعلى الجانب الآخر من الإبداع الخالص ، يعتبـر الخوارزمي أول رياضي مسلم ، يدين له العالم والغرب خاصة بمحاولة وضـع تنظيم منهجي باللغة العربية للمعارف العلمية والتقويم ، كما يعرف بأنه هـو الذي أدخل اللفظ الأسباني غوارزمو (Guarismo) الذي يعني الترقيم أي الأعداد ومنازلها ، وهو اللفظ الذي يكتب بالإنجليزية (Algorithm) وهو مشتق مـن اسم الخوارزمي كما ورد في مصنفه المعروف باسم كتاب الخوارزمي في الأرقـام الهـندية ، وكمـا وضع كتاباً في الجبر بعنوان (الكتاب المختصر في حـساب الجبر والمقابلة) . واهتم إخوان الصفا وأحمد بن يوسف البوني بنظرية الأعـداد والأعداد المتحابة والمربعات والمربعات السحرية ، ويبرز في مجال الهندسـة من العلماء المسلمين العرب الأخوة الثلاثة أبناء موسى بن شاكر الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي ، وكان مصنفهم المعروف باسم (كتاب معرفة مـساحة الأشـكال) أحد الأسس التي بني عليها علماء الغرب علم الهندسة من أمـثال : فيبوناشـي (Fibonacci) وجوردانوس نيموراريوس (Jordanus Nemorarus) وروجر بيكون (Roger Bacon) وغيرهم ممن استطاعوا أن يعرفوا الأفكار الأولى الخاصة بالرياضيات مثل برهان الفرضية الخاصة بقياس الدائرة أو قياس مساحة المثلث من خلال العلاقة بين أضلاعه .

ولقد شهد علم الفلك الإسلامي ثورة علمية هائلة إبان العصور الوسطى، وقـد بـدى نـشيطاً ومتقدماً على الأوروبيين ، ومن أبرز هؤلاء العلماء عالم الرياضيات المصري ابن الهيثم ، الذي لعب دوراً مهماً في حفز الفلكيين العرب إلـى الـتفوق على بطليموس واليونانيين ، حيثما عبر عن شكوكه حول نظرية بطلـيموس الخاصة بالأجرام السماوية ، ويأتي بعد ابن الهيثم بقرن من الزمان علمـاء مـسلمون عـرب فـي الأندلس يقودون ثورة " بالتمرد على علم الفلك البطلمي " .

أما مدرسة مراغة في غرب إيران ، وهي مدرسة ضمت علماء مثل : الأردي والطوسي وقطب الدين الشيرازي وابن الشاطر قد نجحت في وضع النماذج الفلكية غير البطلمية . ولذا فإن هذا التراث الحي الذي بدأه ابن الهيثم في القرن الحادي عشر يمثل برنامجاً علمياً بحثياً في علم الفلك ، يتضمن مجموعة متفقاً عليها من الاعتراضات على النظرية القائمة مع معايير جديدة للنجاح للتوصل إلى نظرية علمية . وبينما أخفق المجهود الأندلسي ، وهو مجهود يمكن توسيعه ليضم ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وموسى بن ميمون ، في إنتاج نظرية علمية مقبولة ، فإن فلكيي مراغة نجحوا (وخاصة على يد ابن الشاطر) إلى الحد الذي دعا البعض إلى القول ، دون تجاوز الحقيقة ، إن كوبيرنكس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة ، إن لم يكن آخرهم .[٣٦]

ولاحظ العرب المسلمون بدقة الظواهر البصرية التي بدت لهم في الغلاف الجوي ، ووصفوا هذه الظواهر بأدق صورة ممكنة ، وحاولوا تفسيرها علمياً قدر استطاعتهم ، وعلى الرغم مما تعلموه من اليونانيين في هذا المجال إلا أن رؤيتهم لعلم البصريات (أو المناظر) كان لها تأثيرها على تطور هذا العلم في أوروبا فيما بعد .

فقد وصف إخوان الصفا قوس قزح والهالات ، ملاحظين في الحالتين الدور الذي يلعبه كل من انعكاس الضوء والرطوبة . وميز زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى سنة ١٢٨٣م) ثمانية ألوان منفصلة وذهب قطب الدين الشيرازي (المتوفى ١٣١١م) وكمال الدين الفارسي (المتوفى سنة ١٣٢٠ م) إلى أن الضوء لدى اختراقه جسماً كروياً ينكسر مرتين وينعكس مرة واحدة ، وحاولا الوقوف على أسباب تكون الألوان ، وتقديم تفسيرات مماثلة للسراب والمرئيات الوهمية ، كما حاولا توضيح بعض مظاهر انخداع البصر . ويعتبر " كتاب المناظر " في البصريات المصنف العظيم الذي خلد ذكر ابن الهيثم . وقد ترجم فردريك رسنر (Frederick Risner) هذا الكتاب إلى اللاتينية . ونشر في مدينة بازل بسويسرا سنة ١٥٧٢م بعنوان كنز البصريات (Thesaurus Opticus) .[٣٧]

ب - العلـوم الطبيعـية والطب - يمثل مجال العقاقير والسموم أكثر مجالات الطـب ازدهـاراً عند المسلمين ، وقد شهد سوق العطارين في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى رواجاً لكثير من الأدوية التي تم اختراعها وتركيبها بمعرفة علماء مسلمين إبان عصر النهضة الإسلامية . ومن أهم الكـتب فـي هذا المجال كتاب " شرح أسماء العقار " لموسى بن ميمون (المتوفى سنة ١٢٠٤م) لأنه يقتصر على عرض مبسط لأسماء الأدوية ، ولا شـك أنه على الرغم من نبوغ علماء المسلمين في هذا المجال ، إلا أنهـم كانوا على علم بكتابات علماء العقاقير اليونانيين ، وإن كان كتاب " الأدويـة المفـردة " (Materia Medica) المعروف باسم " كتاب الحشائش " والذي وضعه " ديوسقوريدس " (Dioscurides) ظل أعظم مرجع تقليدي في هذا الميدان . إن أهمية علم الطب والعقاقير في التراث الذي خلفه الإسلام لا تضارعها أهمية أي فرع آخر من فروع العلم .

ويعتبـر كـتاب " فردوس الحكمة " الذي وضعه علي بن ربن الطبري (سنة ٨٥٠م) أقدم موسوعة عربية في الطب ، وتضم أفكاراً وأساليباً تتفوق على كـل ما عداها . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه كان على علم بالكتاب الـرائد الذي وضعه حنين بن إسحاق عن طب العيون ، وربما كان أيضاً على علم بترجمته لكتاب " مقالة في الدلائل " أي التشخيص لأبقراط . (٣٨)

ومـن العلماء الموسوعيين الذين قدموا إسهاماً متميزاً للطب والحضارة الغـربية ، أبـو بكـر محمد بن زكريا الرازي المسمى عند أهل الغرب رازيز (Rhazes) (المتوفـى سنة ٩٢٥م) ، ويستدل على مكانته العظيمة كتابه الطبي العظـيم " الحـاوي " الذي يعرف باللاتينية باسم (Continens) وكتابه الآخر الطب المنصوري المعروف في الغرب باسم (Ad Almansorem) .

أما ابن سينا ، فإن مؤلفه الأساسي كتاب " القانون " ، يعتبر إنجيل الطب فـي العـصور الوسطى ، وحل هذا الكتاب إلى حد ما محل مؤلفات الرازي . كـذلك فإن ابن رشد (المعروف لدى الغرب باسم أفيروس Averroes) والذي تـرجم كـتابه المشهور في الطب " الكليات " إلى اللاتينية باسم (Colliget) . ونذكـر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، علي بن النفيس (المتوفى

سنة ١٢٨٨م) . كذلك فإن علي بن عيسى الكمال يعتبر أعظم من برع في طب العيون عند العرب . [٣٩]

وقد نبغ العرب في علوم النبات والحيوان والمعادن ، بالإضافة إلى الطب البيطري ، فكتاب النبات الذي ورد اسمه في قوائم مؤلفات أرسطو يمثل مظهراً فريداً لتراث الإسلام في الغرب ، فهذا الكتاب هو ترجمة يونانية للصيغة اللاتينية التي عملها ألفرد دي سارشيل (Alfred de Sareshel) لكتاب النبات الذي ألفه في الأصل نيقولا الدمشقي (Nicholaus Damascenus) ، " وكتاب النبات " لأبي حنيفة الدينوري ، وترجم إلى اللاتينية " كتاب الفلاحة النبطية " لابن وحشية ، وترجمت كتابات عالمين أندلسيين في الزراعة هما ، ابن واقد وابن بصال . ومن الكتب الذائعة ، كتاب " الحيوان " للجاحظ ، وكتاب " طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها " لعبيد الله بن جبرئيل بن يختيشوع ، وكتاب " حياة الحيوان " للدميري . كذلك فإن مؤلفات المسلمين في خواص المعادن والأحجار أثارت اهتمام الغرب ، وقد وضع أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة ١٠٥٣م) مؤلفه المعروف بكتاب " الجماهر في معرفة الجواهر " (Book of Stones) الذي خالف فيه تماماً ما هو مألوف في كتب علم التعدين عند المسلمين ، وتجاهل كلية وجود أي خواص سحرية للأحجار ، ففي هذا الكتاب قدم ، بالإضافة إلى شروحه لأسماء الأحجار ، مواضع المناجم والأوزان النوعية للعناصر . وبالنسبة للكتب الموسوعية لابد من التنويه إلى كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة الدينوري (سنة ٨٨٩م) ، الذي ترجم القسم الخاص بالحيوان فيه إلى الإنجليزية مع تعليق عليه . أما الكتب التي تصف الكون فأشهرها كتاب ألفه زكريا بن محمد القزويني (المتوفى سنة ١٢٨٣م) وهو كتاب " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " وقدم حمد الله المستوفي – الذي ولد بعد حوالي ثمانين عاماً من وفاة زكريا القزويني – مصنفه الموسوعي المعروف بـ " نزهة القلوب " بالفارسية ، والذي اعتمد على كتاب القزويني المشار إليه سابقاً . وقد ترجم ستيفنسون (Stevenson) القسم الخاص بالحيوان من هذا الكتاب إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٨ . [٤٠]

ج - الفلسفة - تتكون الديانة الإسلامية في جوهرها من الوحي (Revelation) المنزل على الرسول الكريم ﷺ والمتمثل في آيات القرآن الكريم ، وهذا ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلي عن الإرادة الإلهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة . أما تفسير هذا القرآن ، فهو ما يثيره الوحي من رد فعل في العقل الإنساني ، وإذا كان الوحي أو سنة الرسول (المتمثلة في أحاديثه النبوية) يبقيان على مر العصور دون أن يخضعان لأي تغيير ، فإن تفسير القرآن والأحاديث ربما يتعرضان للاجتهادات والتغيرات . والملامح الأساسية للفلسفة الإسلامية تنبع من القرآن الكريم ، وهو نقطة البداية التي لا مراء فيها . ولكن هذا لم يمنع من وجود صلات بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية خاصة فيما يتعلق بالمعرفة أو فلسفة العلوم (كما يطلق عليها الآن) ، ومن ثم اقترب فلاسفة الغرب من الفلسفة الإسلامية ونهلوا منها ليجمعوا بين الإرث الإغريقي والفلسفة الإسلامية ، وتأثر الغرب بحكمة الفارابي (المتوفى سنة ٩٥٠م) ، وابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧م) ، وابن رشد (المتوفى سنة ١١٩٨م) . وكانوا جميعهم مقتنعين بوحدة المعرفة .

والفارابي في كتابه " إحصاء العلوم " يحصي العلوم المتنوعة ويتكلم عنها ، ويذكر الفلسفة في النهاية على أنها رأس العلوم ، لأنها تضمن اليقين في المعرفة التي يحصل عليها بالبرهان. وابن سينا في كتابه الكبير الجامع " الشفاء" (والمقصود به شفاء الناس من الجهل) يحيط بجملة العلوم بحسب الخطة التالية: (١) المنطق ، (٢) الطبيعيات ، (٣) الرياضيات ، (٤) الإلهيات . ويدخل ابن سينا في نطاق الإلهيات جميع ما جاء به الوحي في القرآن الكريم . ويبين أن الله ، وهو واجب الوجود والذي لا واجب وجود سواه ، خير قادر على كل شيء ، وخالق كل شيء وقدير حكيم .

ويميز ابن رشد بين ثلاثة أنواع من العقول : الأول هو العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقيني محكم ، وتصل إلى نتائج بينة ضرورية ، وربط هذه الأدلة هو الذي يكون الفلسفة ، أليس هذا يمثل جوهر فلسفة العلم المعاصرة، والنوع الثاني عقول منطقية تكتفي بالبراهين الجدلية . أما النوع الثالث فهو

العقول التي تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية ، وهذه غير مهيأة لاتباع الاستدلال المنظم ، والعقول الأخيرة نجدها عند جميع الناس العاديين . وخلاصة القول فإن الفلسفة الإسلامية تبدي ولعاً بمسألة المعرفة وأسسها المتعلقة بالنفس والوجود.(٤١)

د - الأدب - ربما يكون مصدرنا الأساسي في هذا الجزء ما كتبه فرانز روزنتال Rosenthal في كتاب " تراث الإسلام " ، حيث ميز ، في تاريخ العلاقات الأدبية بين الإسلام والغرب ، ثلاث حقب متوالية ، الأولى والثانية يتداخل بعضها مع بعض ، يبدأ من القرن الأول الهجري وحتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وشهدت هذه الفترة بدايات حركة ترجمة واسعة من الأدب العربي إلى اللغات الأوروبية ، ونستطيع أن نتوقع وجود تأثيرات أدبية نتيجة لانتشار المواد المكتوبة ، أما الحقبة الثالثة فقد ظهرت مع الترجمات العلمية الأولى التي تمت في هولندا ، في أوائل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، ومع إدخال الأدب الفارسي في نفس الوقت عن طريق ترجمات لديوان السعدي . وقد ترجم هذا الديوان أول الأمر ترجمة فرنسية غير كاملة على يد دوريير Du Ryer سنة ١٦٣٤م ثم ترجمة جنتيوس Gentius إلى اللاتينية سنة ١٦٥١م وترجمه أوليريوس Olearius إلى الألمانية سنة ١٦٥٤م . وقد لقيت هذه الترجمات رواجاً كبيراً في أوروبا كلها ، أما علم المعاجم العربية ، فكان هو الأساس الذي قامت عليه المعاجم الغربية العربية .(٤٢)

ومما يلفت الانتباه ، أن كثيراً من الأعمال الأدبية الغربية تأثرت بالأدب الإسلامي مثل ملحمة ترسترام وأيزولد Tristram & Iswlt والتي تحمل في بنيتها شبهاً مع بنية الملحمة الفارسية (وايس ورامين) وأي كانت هذه التأثيرات مثلما ذكر عن " دانتي " وتأثره بعروج الرسول ﷺ في صياغته " للكوميديا الإلهية " من خلال بحث ميجيل بالاثيوس Palacios سنة ١٩١٩ ، فإن الحقيقة الثابتة أن كثيراً من الأعمال الأدبية التي أنجزت في العالم الإسلامي ترجمت إلى لغات الغرب ، وكتب لها التداول ، والأهم من ذلك أنها لاقت رواجاً كبيراً ،

وربمـــا لا يسعفنا البحث في هذه الدراسة أن نتحرى هذه التأثيرات في كثير من الأعمال الأدبية الغربية .

ولكـــن هـــذا لا يمـــنع أن نذكـــر أن كثيراً من عناصر الأدب الشعبي الإســـلامي تواترت في الظهور مرة بعد أخرى في الأدب الغربي ، على سبيل المـــثال مجموعة قصص " الأيام العشرة " لبوكاتشو Boccaccio ومما يستحق الذكر ذلك الأثر الكبير الذي أحدثه ترجمة أنطوان جالان Antoino Galland لألـــف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية ، فقد أدخلها بالفعل إلى الخيال الأدبي لأهل الغرب.

ولا يمكـــن أن ننـــسى تأثير الترجمة الإنجليزية لرباعيات الخيام والتي قـــدمها إدوارد فيتزجـــرالد Edward Fitz Gerald ، فقـــد شقت طريقها إلى الحضارة الغربية وكشفت عن عالم أكثر حرية وصفاء وإنسانية . وهناك بعض التـــرجمات التي تمت بتصرف مثلما حدث لكتاب " كليلة ودمنة " و" السندباد " و" الحكماء السبعة " ، وقد ترجمت أقوال الفلاسفة القدماء التي جمعها حنين بن إسحاق (المتوفى ٨٧٣م) إلى العبرية ، مما ساعد على كثرة تداولها ورواجها في جمـــيع أوروبا . أما الحكم التي جمعها المبشر بن فاتك في مصر في الفترة من ١٠٤٨ – ١٠٤٩م فقـــد ترجمت إلى الأسبانية بعنوان " الأقوال الذهبية " ثم إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية ، ويرجع الاهتمام الكبير بهذا الكتاب إلى طابعه التعليمي والتهذيبي .

وبكلمة موجزة ، فإن هذه التأثيرات الإسلامية وسعت النظرة الغربية إلى العـــالم وجعلـــتها أكثر تنوعاً . وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربي بدرجـــة لا حـــد لها ، وكان أحد العوامل التي مكنت هذا الأدب من التطور في اتجاه نوع من العالمية كان جديداً في تاريخ الإنسانية .(٤٤)

ه – القانـــون – يعـــتقد جوزيف شاخت Schaht – وعن حق – أن أهم ما أورثـــه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الذي يسمى " بالشريعة " . بل إن التـــشريعين المقدسين الآخرين الذين يعتبران نماذج من القانون الديني ، والـــذين همـــا أقـــرب مـــا يكونان إلى الشريعة الإسلامية من الناحيتين التاريخـــية والجغـــرافية – وهمـــا الـــشريعة اليهودية Jewish Law والقانـــون الكنـــسي Canon Law – يخـــتلفان عن الشريعة الإسلامية

اختلافاً ملموساً. ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعاً وشمولاً في صورتها مما في التشريعين المذكورين . والخاصية الرئيسية التي تجعل التشريع الإسلامي على ما هو عليه وتضمن وحدته مع كل ما فيه من تنوع ، هي نظرته لجميع أفعال البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه ، وهو ذو منهج منظم ويؤلف مذهباً متماسكاً ، ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض . أما عن تأثيرات التشريع الإسلامي على القوانين الأخرى ، فإنها لا يمكن أن تبارى من حيث الأهمية ، وأعظم هذه التأثيرات جاء في القانون التجاري المتعارف عليه ، فالعديد من أنظمة هذا القانون التجاري انتقل في العصور الوسطى إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط ، والشاهد مصطلحات مثل : لفظ (Mohatra) المأخوذ من الكلمة العربية مخاطرة ، ولفظ (Aval) وهي كلمة فرنسية محرفة من كلمة " حوالة " العربية ، أي تحويل الديون . وربما أيضاً لفظ " شيك " Cheque جاء من الكلمة العربية " صك " أي الوثيقة المكتوبة . وكان تأثير التشريع الإسلامي واضحاً في أسبانيا الإسلامية وجمهورية جورجيا السوفيتية ، وفي قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية . فبالنسبة للجانب اليهودي ، يبدو أن موسى بن ميمون (المتوفى سنة ١٢٠٤م) ، قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته بعنوان " مشنة توراه " (Mishnah Torah) وبالنسبة للجانب المسيحي فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية وهما : اليعاقبة الموثوفيزية (Monophysites) والنسطوريون (Nestorians) ، وخاصة فيما يتعلق بقانون الميراث والأوقاف الخيرية .[٤٤]

لقد كان تأثير الإسلام في أوروبا شاملاً ميادين كثيرة ، ومهيمناً على جوانب متعددة ، ويمكن القول أن هذا التأثير عم مستويات الحياة الأوروبية جميعاً ، ونال أكثر المجالات والبني اختلافاً وتباعداً بما في ذلك النواحي المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة

والدين ، بل إنه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ليشمل العمارة والموسيقى والفنون التشكيلية ، وكانت الأخيرة ذات تأثير بارز على جميع مناحي الحياة في أوروبا.

ولقد كانت نهضة العرب وإبداعاتهم ، هي - بلا شك - أساس نهضة أوروبا وحجر الزاوية لحضارتها المعاصرة . أما عن الإرث الإغريقي ، فلقد انتقل إلى الغرب عبر ترجمات عربية أولاً ، ويعترف المنصفون من أبناء الغرب ، بأن ما كتبه علماء الإسلام من هوامش وملاحظات ، وما طوره هؤلاء العلماء من أفكار ومبادئ ونظريات لم يكن يقل في أهميته عن النصوص الأصلية. لقد كان الشرق الإسلامي بالنسبة لأوروبا نوعاً من المنبع أو المصدر، الذي استمدت منه عناصر ثقافية لم تكن في متناول يديها قبل احتكاكها بهذه المنطقة الحيوية ، والأهم من ذلك فقد كان الشرق الإسلامي هو المحرض أو الدافع الدائم ، الذي شكل تحدياً لأوروبا من خلال طرحه أفكاراً جديدة ، وإشكاليات غريبة معقدة ، اضطرتها إلى البحث المتوتر النشيط بغية التوصل إلى حلول معقولة لتلك الإشكاليات ، وأخيراً فقد كان الشرق الإسلامي بمثابة الإمثولة والقدوة التي تستوجب العمل والتحدي من أجل تحقيقها والوصول إليها .

تغريب العالم :

إن النظرة الأكثر موضوعية للغرب تكون من خلال جملة من الأبعاد ، لا يمكن تجاهل إحداها ، فهو كيان جغرافي يتحدد في أوروبا وأمريكا ، وديانة مسيحية (الكاثوليكية تحديداً) ، وضمن فلسفة التنوير ، ولسنا مبالغون إذا قلنا وعرق أبيض ، وأخيراً نظام اقتصادي رأسمالي ، وهو في النهاية يمثل ظاهرة حضارية لها خصوصيتها .

وإذا كان الغرب يعادي ثقافة Anticulture كما يحلله روبير جولان Robert Jaulin لأنه يدمر ثروة الجماعات الإثنية في العالم الثالث أو يقوم بإحلال الرفاهية المجهولة للنمو الاقتصادي على أسس ثقافية استهلاكية ، فهو بهذا المعنى يتحدد في المفهوم الضيق لكلمة " ثقافة " .

ونحن نلتقي في الكتابات المعاصرة بألفاظ مثل تثاقف Acculturation، وتستخدم كلمة تثاقف للدلالة على تفاعل إيجابي عند الاحتكاك بين الثقافات . وعندما تدخل ثقافتان في اتصال ، فإذا كانت السمات الثقافية التي يجري تبادلها

تتوازن وتحافظ كل منهما على هويتها وديناميتها الخاصتين بعد إدماج واستيعاب العناصر الأجنبية ، يمكن الحديث عن تثاقف ناجح . وعندما ، على العكس من ذلك ، لا يتجسد الاتصال في تبادل متوازن ، بل في تدفق في اتجاه واحد مصمت ، تغدو الثقافة المتلقية مغزوة ، مهددة في وجودها ذاته ويمكن اعتبارها ضحية عدوان حقيقي ، وإذا كان العدوان ، فوق ذلك مادياً ، فهذا هو الزوال أو الإبادة الجماعية . أما إذا كان العدوان رمزياً ، فإن الإبادة الجماعية تغدو ثقافية وحسب ، أي إبادة إثنية ، والإبادة الإثنية هي أعلى مراحل محو الثقافة . والواقع أن عمليات إدخال القيم الغربية : قيم العلم والتقنية . والاقتصاد ، والتنمية ، والسيطرة على الطبيعة ، هي دعائم محو الثقافة . إن الأمر يتعلق بتحويل عقيدي حقيقي .(٤٥)

على أن وسيلة نقل هذا " التحويل العقيدي " تجاوز حدوده المستترة ، فقد كان بالأمس من خلال منح الهبات يحصل الغرب على السلطة والهيبة اللتين تؤديان إلى المحو الحقيقي للأبنية الثقافية ، على حين أصبح اليوم يتمثل في العنف المكشوف أو النهب ، حتى وإن تقنع بقناع التبادل السلعي غير المتكافئ . ولا يمكن للمجتمعات الإسلامية أو دول العالم الثالث (غير الغربية عموماً) إلا أن تدور في حلقة مفرغة ، ففقدان المعنى الذي يصيبها ويتخر فيها لا يمثل تثاقفاً، ولا يعني مجرد واقع أن الغرب ماثل هناك ، بل هو محاولة جادة للاغتصاب والاستغلال والعودة إلى قيم ومفاهيم الاستعمار القديم .

فكرة الاضمحلال في الحضارة الغربية :

على الرغم من كثرة الكلام عن " أفول الغرب " ، والجدل الدائر حول هذه الفلسفة ، فإن الرأي الأكثر قبولاً أن الغرب الحديث على شفا حفرة من الفناء . ومهما كان من أمر السطوة الخارجية للغرب ، إلا أنه يحمل في بنيته الداخلية فكرة التحلل والاضمحلال .

ويذهب بول كيندي Kennedy, 1987 في كتابه " قيام وسقوط القوى الكبرى " إلى أن الأمريكيين كانوا على وشك أن يواجهوا المصير نفسه الذي واجهه البريطانيون في نهاية القرن التاسع عشر ، ألا وهو الاضمحلال كقوة عالمية . كانت الولايات المتحدة تعاني مما يدعوه بول كيندي " التوسع

الإمبريالـــي المفـــرط " ، وكانت تضغط عليها القوى العنيدة نفسها التي حطمت " الـــسلم البريطاني " (Pax Brittanica) وأدت إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية – وبالوقوع في فخ الالتزامات العسكرية إبان الحرب الباردة . ومضى كيندي بقوله سوف تكون المهمة التي تواجه رجال الدولة الأمريكيين في العقود القادمـــة هـــي إدارة الأمـــور على نحو يجعل التآكل النسبي في وضع الولايات المتحدة يحدث ببطء وهدوء .(٤٦)

وربمـــا يتـــساءل البعض ألم يحدث العكس ؟ فبعد أقل من ثلاث سنوات علـــى صـــدور كتاب كنيدي اختفى الاتحاد السوفيتي وصعدت أمريكا إلى موقع القـــوة الوحيدة في العالم ، وأي كانت نقطة التحول هذه ، فإن الواقع المرصود أمامـــنا أن أمـــريكا تجاوزت – بانهيار الاتحاد السوفيتي – الحرب الباردة إلى حـــروب ســـاخنة فـــي أمـــاكن عديدة من العالم ترتسم من خلالها فكرة التوسع الإمبريالي المفرط متزامناً مع التزامات عسكرية أكثر ، إن كثيراً مما حدث في إمبـــراطوريات قديمـــة مـــنهارة يـــسيطر علـــيها الولايات المتحدة : العجرفة والغطرسة، الاستقطاب الاقتصادي ، انتشار الترف والانحلال الأخلاقي .. إلخ . من أعراض الاضمحلال .

وقـــد ظهرت كتب كثيرة تبحث في نفس المعنى عن مستقبل أمريكا مثل " فجـــر الديمقـــراطية الكـــاذب " و" فقـــدان الأمـــل في الديمقراطية " و" شرك الديمقـــراطية " و" محاكمـــة الديمقـــراطية " و" فقـــدان الأمل في الديمقراطية " و" الجمهـــورية المجمدة " و" قضايا العرق " و" بيع أمريكا " و" إفلاس أمريكا " و"الحلم الأمريكي المهدد " و" من سيخبر الشعب " . (٤٧)

ولـــيس مـــن شـــك أن فكرة الاضمحلال الغربي هذه ، لها جذورها في أعمال بعض المفكرين عند بدايات القرن العشرين ، فمثل هذه التحذيرات ذهب إلـــيها أرنـــولد تونبـــي Toynbee وأوزوالد شبنجلر Spengler وبنيامين كيد Benjamin ، وهؤلاء الكتاب أنفسهم هم الذين صاغوا مصطلح " الغرب " لكي يصفوا به حضارة أوروبية مترنحة ، كانوا يعتقدون أنها آفلة لا محالة .

وعلى الرغم من قيم التحلل والاضمحلال في الحضارة الغربية ، إلا أن هذا ليس وحده الذي ينخر في هذا الصرح ، بل إن تدهور البيئة ربما يؤدي إلى

نفس النتيجة ، ليس للحضارة الغربية فحسب ، بل لكوكب الأرض ككل ، وفي كتاب له مغزاه تحت عنوان " الأرض في الميزان " يؤكد ألبرت جور Albert Gore نائب الرئيس الأمريكي السابق على : إذا لم نتمسك بالحفاظ على الأرض ، جاعلين ذلك مبدأ تنظيمياً جديداً لنا ، فإن بقاء حضارتنا نفسها ، يصبح موضع شك . (٤٨)

ويذهب جور إلى أن سخونة الكرة الأرضية ، نقص الأوزون ، تدمير الغابات الطبيعية ، انقراض السلالات ، تلوث الهواء والماء ، كل ذلك يشكل تهديدات قاتلة لوجودنا ذاته ، والنتيجة أننا نلهث وراء الأدوات والتكنولوجيا المغرية التي جاءت بها الحضارة الصناعية ، ويحاول جور أن يستنفر العالم لإنقاذ الكوكب بقوله إن البشر في جميع أنحاء العالم لابد أن ينظروا نظرة جادة إلى عاداتهم الذهنية والعملية التي تعكس هذه الأزمة الخطرة والتي أدت إليها بداية ، ومن بين هذه العادات والممارسات ، الرأسمالية الجديدة المولعة بالكسب، والتي عميت عما تسببه للبيئة من دمار. (٤٩)

ويعتقد جور أن هذه الحضارة تواجه الآن " أزمة هوية اجتماعية " ، كما أن هناك دلائل تتجمع وتثبت أن هناك بالفعل أزمة روحية في الحضارة الحديثة بسبب خواء مضمونها وغيبة هدف روحاني أكبر . (٥٠)

لقد عادت الأفكار تتلاقى ، فاضمحلال وتحلل الحضارة بسبب التردي القيمي والأخلاقي يمثل خلاصة القول وإن أخذ في أحد أشكاله ، صيغة التدهور البيئي .

ومن نافلة القول أن نذكر أن " فكرة الاضمحلال في الحضارة الغربية "، شكلت الأساس المظلم للفكر الأوروبي الحديث في القرن التاسع عشر ، بل وأصبحت الموضوع الأكثر سيادة وتأثيراً في الثقافة والسياسة في القرن العشرين .

ويعتقد آرثر هيرمان Herman, 1997 أن فكرة الاضمحلال مكونة من فكرتين جزئيتين . في مقابل كل متقف غربي يخشى اضمحلال مجتمعه (مثل هنري آدمز أو أرنولد توبيني أو بول كينيدي أو تشارلز موراي ، هناك متقف آخر يتطلع إلى ذلك بلهفة . وعلى مدى ثلاثة عقود قدم مفكرون أمثال نورمان

مايلـــر Norman Malier ، جـــور فـــيدال Gore Vidal، كريستوفر لاش Christopher Lasch ، جـــاري ويلـــز Garry Wills ، نعـــوم تشكومسكي Naom Chomsky ، بـــول جـــودمان Paul Goodman) صـــوراً متشائمة للمجتمع الأمريكي والحضارة الغربية بصفة عامة . (٥١)

والسؤال الذي يطرح نفسه لم هذه النظرة التشاؤمية ؟ ولم اللهفة والفرحة من قبل بعض المفكرين الغربيين حال حدوث هذا الاضمحلال ؟

وربما تكون الإجابة إيجاز لما سبق ، فالمجتمع الغربي مادياً ، مفلساً من الناحـــية الروحية ، ومجرداً من القيم الإنسانية . وأما المتلهفون للاضمحلال ، لأنهم يعتقدون أن المجتمع الحديث الفاسد عندما يفرغ من تدمير نفسه ويختفي ، سوف يحل محله شيء آخر أفضل منه ، إلا أن النظام الجديد لن يكون اقتصادياً أو سياســـياً بالأساس . ولكن بدلاً من ذلك سوف يكون إنسانياً . والفلسفة عندهم أن الأمور كلما زادت سوءاً ستصبح أحسن .

والكلمـــة الأخيرة في هذا المجال ، هي أن آلية الاضمحلال موجودة في بنـــية الحضارة الغربية ، وقد عبر عنها شبنجلر في كتابه " أفول للغرب " بأن الحـــضارة الحديثة مأسورة في عملية اضمحلال وتدهور وسقوط حتمي ، كذلك نيتشه الذي قال هناك عناصر تآكل في كل شيء يميز الإنسان الحديث .

مراجع الفصل الرابع

١ - حسين مؤنس (١٩٩٨) ، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .

2 - Toynbee, A. (1964), A study of History, Oxford University Press, P. 235.

٣ - حسين مؤنس (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص٥٠ .

٤ - المرجع السابق ، ص٥٠ .

5 - Freeman, E. A. (1873), Comparative Politics, London, P.P 31-32.

6 - Toynbee, A. (1976), Man and Mother Earth, Oxford University Press, P.P. 22 – 23.

٧ - صوفي بيسيس (٢٠٠٢) مؤلف ، نبيل سعد (مترجم) ، الغرب والآخرون : قصة هيمنة ، دار العالم الثالث ، القاهرة .

٨ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، نحن والغرب : جدل الصراع والتعايش ، دار الهادي ، بيروت ، ص١٩ .

9 - Riley – Smith, J. (1987), What were the Crusades ?, London, P. 11.

١٠ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص١١ .

١١ - جوزيف نسيم يوسف (١٩٨١) ، العرب والروم واللا قيمة في الحروب الصليبية الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

١٢ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

١٣ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

١٤ - جوســتاف لوبون (١٩٧٨) ، مؤلف ، عادل زعيتر (مترجم) ، حضارة العرب ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ص٣٢٠ .
١٥ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .
١٦ - المرجع السابق ، ص١١ .
١٧ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .
١٨ - ول ديــورانت (٢٠٠١) مؤلــف ، محمــد بــدران (مترجم) ، قصة الحضارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الجزء ١٥ ، ص ص ٦٤ – ٦٧.
١٩ - إرنست باركر (١٩٩١) مؤلف ، السيد الباز (مترجم) ، الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص١٥٠ .
٢٠ - إدوار بــروي وآخــرون (١٩٨٦) مؤلفــون ، يوسف داغر وفريد داغر (مترجمان) ، تــاريخ الحضارات العام ، منشورات عويدات ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مج ٣ ، ص ٣١٤ .
٢١ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .
٢٢ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ١٩٧ .
٢٣ - إرنست باركر (١٩٩١) ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .
٢٤ - أحمــد توفيق المدني (١٩٧٥) ، المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ، الجزائر ، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .
٢٥ - جوستاف لوبون (١٩٧٨) ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ .
٢٦ - ول ديورانت (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .
٢٧ - قاسم عبده قاسم (١٩٩٠) ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .
٢٨ - توبــي هــف (٢٠٠٠) مؤلف ، محمد عصفور (مترجم) ، فجر العلم الحديث ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ١١٧ .
٢٩ - صوفي بيسيس (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .
٣٠ - المرجع السابق ، ص ٢٧ .
٣١ - عبد الجبار الرفاعي (٢٠٠٢) ، مرجع سابق ، ص ص ٥٨ – ٥٩ .

32 - Fuller, G. E. & Lesser, I. O. (1995), the Geopolitics of Islam and the West, Rand., P. 37.

33 - Ibid, PP. 37 – 38 .

٣٤ – توبي هف (٢٠٠٠) ، مرجع سابق ، ص ص ٦٥ – ٦٦ .

٣٥ – جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) محرران ، حسين مؤنس وإحسان صدقي (مترجمان) ، تراث الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الجزء الثاني ، ص ص ١٨٩ – ١٩١ .

٣٦ – توبي هف (٢٠٠٠) ، مرجع سابق ، ص٧١ .

٣٧ – جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث (١٩٩٨) ، مرجع سابق ، ص٢١٥ .

٣٨ – المرجع السابق ، ص١٦٤ .

٣٩ – المرجع السابق ، ص١٦٧ .

٤٠ – المرجع السابق ، مواضع متفرقة .

٤١ – المرجع السابق ، ص ص٥١ – ٥٣ .

٤٢ – المرجع السابق ، ص٢٨ .

٤٣ – المرجع السابق ، ص٣٩ .

٤٤ – المرجع السابق ، ص١٠٨ .

٤٥ – سيرج لاتوش (١٩٩٢) مؤلف ، خليل كلفت (مترجم) ، تغريب العالم ، دار العالم الثالث ، القاهرة ، ص ص ٥٩ – ٦٠ .

46 - Kennedy, P.(1987), Rise and Fall of the Great Powers, New York, PP. Xvi – xviii .

47 - Kennon, Twilight of Democracy, Graham Fuller, the Democracy Trap (New York, 1991), Jean B. Elshtain, Democracy on Trail (New York, 1995), Victor Kamler, Giving Up of Democracy (Washington, DC, 1995), Daniel Lazer, the Forzen Repuplic (New York, 1996), Gornel West, Race Matters, (New York, 1993), Rose

L. Martin, the Selling of America, (Santa Monica, CA, 1993), David Calleo, the Bankrupting of America, (New York, 1992) Edward Luttwak, the End Angered American Dream, (New York, 1989), and William Grieder, who Will Tell the People? (New York 1992).

48 - Albert Gore (1992), Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit, Permission of Houghton Mifflin Company .

49 - Ibid, P.12, 183.

50 - Ibid, P.12, 367.

51 - Herman, A. (1997), the Idea of Decline in Western History, Simon & Schuster Inc., New York.